بسم الله الرحمن الرحيم

شرح

صحيح البخاري

للإمام البخاري (٢٥٦ هـ) .

كتاب بدء الوحي

المراجع

فتح الباري لابن حجر – وفتح الباري لابن رجب – شرح ابن بطال –
شرح ابن الملقن – كتب الشيخ ابن عثيمين رحم الله الجميع وغيرها

بقلم

سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية – رفحاء

الموقع على الانترنت

www.almotaqeen.net

مقدمة

- اسم الكتاب : الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه .
- اسم مؤلفه : محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ،ولد عام (١٩٤هـ) ومات (٢٥٦ هـ) .
- له تصانيف كثيرة غير الصحيح منها : التاريخ الكبير ، الأدب المفرد ، القراءة خلف الإمام
- سمع الصحيح منه نحو تسعين ألفاً من أشهرهم : أبو عبد الله محمد بن يوسف الفربْري المتوفى عام (٣٢٠ هـ) .
- كانت مدة تأليف البخاري (١٦) عاماً ، وقد ابتدأه في المسجد الحرام ثم انتقل إلى البصرة ثم إلى بخارى ثم أتمه في المدينة النبوية .
- هو أصح كتاب بعد القرآن العزيز .
- عدد معلقات صحيح البخاري (١٣٤١) حديثاً معلقاً .
- عدد أبواب صحيح البخاري (٣٤٥٠) باباً ، وأما عدد كتبه فهي (٩٧) كتاباً .
- مرتب على حسب الكتب والجوامع ، واقتصر على الأحاديث الصحيحة .
- خلوه من المقدمة وابتداءه بحديث (إنما الأعمال بالنيات) .
- أنه يكرر الأحاديث كثيراً .
- أنه يقطع الحديث ويفرقه على الأبواب ربطاً منه للحديث بموضعه .
- يعني بإيراد الاستنباطات في تراجم أبوابه .
- أنه يستهل كل كتاب غالباً بآية أو آيات قرآنية .
- يشتمل كتابه على الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة والمقطوعة .
- يعني البخاري بتفسير بعض الكلمات الغريبة .
- أهم شروحه : فتح الباري للحافظ ابن حجر وهذا أهم الشروح وأوسعها ، ويتميز بكثرة مصادره التي بلغت : ١٣٠٠ كتاب مع مقدمته الحافلة التي سماها هدي الساري ، وشرح عمدة القاري للعيني .
- هو أول من اعتنى بجمع الصحيح : فجمع صحيحه وانتقاه من مائة ألف ، ثم جاء بعده تلميذه أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري .

سبب تأليفه : فقد قال البخاري : كنت عند إسحاق بن راهوية، فقال بعض أصحابنا : لو جمعتم كتاباً مختصراً لسنن النبي ﷺ، فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب) السير [١٢ / ٤٠١] .

وقيل : إن الإمام البخاري قد اطلع على المصنفات الموجودة قبله فوجدها قد اختلطت الأحاديث الصحيحة بالضعيفة ، فأراد أن يجمع الأحاديث الصحيحة فقط بحيث لا يشك فيها أحد .

وقيل : قال : رأيت رسول الله ﷺ ، وكأنني واقف بين يديه ، وبيدي مروحة أذب عنه ، فسألت بعض المعبرين ، فقال : أنت تذب عنه الكذب ، فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح .

أصح الكتب بعد القرآن العزيز : صحيحي البخاري ومسلم .

قال النووي : اتفق العلماء على أن أصح الكتب بعد القرآن الكريم : الصحيحان ، البخاري، ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول .

وقال ابن تيمية : إن الذي اتفق عليه أهل العلم أنه ليس بعد القرآن كتاب أصح من كتاب البخاري ومسلم .

- **البخاري أصح مسلم** :

البخاري أصح وأرجح من مسلم وهذا مذهب أكثر العلماء .

قال النووي : وكتاب البخاري أصحهما ، وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة ، وقد صح أن مسلماً كان ممن يستفيد من البخاري ، ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث .

- أسباب ترجيح البخاري على صحيح مسلم :

أولاً : أن شرط البخاري أضيق من شرط مسلم ، إذ يشترط أن يكون الراوي قد ثبت له لقاء من روى عنه ــ ولو مرة ــ واكتفى مسلم بمطلق المعاصرة مع احتمال اللقي .

قال ابن الصلاح : لأنه اشترط في إخراجه الحديث أن يكون الراوي قد عاصر شيخه وثبت عنده سماعه منه .

ثانياً : أن الذين انفرد البخاري بالإخراج لهم دون مسلم (٤٣٥) رجلاً ، والمتكلم فيه منهم نحو (٨٠) رجلاً .

بسم الله الرحمن الرحيم

١ – كتاب بدء الوحي

قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ الْحَافِظُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ بْنِ الْمُغِيرَةِ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى آمِينَ :

باب كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ . وَقَوْلُ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ)

(١) عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ (إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى ، [فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ] وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ) .

[م : ١٩٠٧] .

==========

قول البخاري (باب بدء الوحي) (الوحي لغة : الإعلام في خفاء ، وشرعاً : الإعلام بالشرع . [الفتح]

فالوحي : ما أوحاه الله عز وجل إلى نبيه ﷺ سواء كان بواسطة أو بغير واسطة .

وَقَوْلُ اللَّهِ جَلَّ ذِكْرُهُ (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) مناسبة الآية للترجمة : واضح من جهة أن صفة الوحي إلى نبينا ﷺ توافق صفة الوحي إلى من تقدمه من النبيين .

- ويستفاد من الآية أن أول رسول هو نوح عليه الصلاة والسلام ، ويدل لذلك حديث الشفاعة الطويل وفيه (... فيأتون الناس إلى نوح فيقولون : أنت أول رسول أرسله الله إلى الأرض ..) متفق عليه .

(عن عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ) هو أبو حفص عمر بن الخطاب بن نفيْل القرشي العدوي ، أمير المؤمنين ، وثاني الخلفاء الراشدين ، أسلم في السنة الخامسة أو السادسة بعد البعثة ، فكان في إسلامه عز للمسلمين ، قتله أبو لؤلؤة المجوسي عام: ٢٣ هـ ودفن مع النبي ﷺ وأبي بكر، وكانت خلافته عشر سنين وستة أشهر وأياماً .

(إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى) اختلف العلماء في معناها ، هل هما جملتان بمعنى واحد أو مختلفتان ؟ والراجح أن الأولى غير الثانية :

الأولى : (إنما الأعمال بالنيات) سبب ، بيّن النبي ﷺ فيها أن كل عمل لا بد فيه من نية ، كل عمل يعمله الإنسان وهو عاقل مختار لا بد فيه من نية ، ولا يمكن لأي عاقل مختار أن يعمل عملاً بغير نية .

الثانية : (وإنما لكل امرئ ما نوى) نتيجة هذا العمل : إذا نويت هذا العمل لله والدار الآخرة حصل لك ذلك ، وإذا نويت الدنيا فليس لك إلا ما نويت .

فجملة (إنما الأعمال بالنيات) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العمل .

وجملة (وإنما لكل امرئ ما نوى) جاءت متعلقة بحكم الشريعة على العامل .

أما العمل : لا شيء من العمل يقبل ويكون مشروعاً إلا بنية .

أما العامل : فإن حظ العامل من عمله على قدر نيته .فإذا صحت نيته صح ثوابه وعمله وإذا فسدت نيته ضاع ثوابه وفسد عمله .

ومن هنا عظمت عناية السلف بالنية , قال ابن المبارك (كم من عمل صغير كبرته النية ، وكم من عمل كبير صغرته النية) .

(**إِنَّمَا الأَعْمَالُ**) والمراد (بالأعمال) ما يصدر من المكلف ويدخل فيها الأقوال .

(**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا**) حقيقتها ما على الأرض من الهواء والجو مما قبل قيام الساعة .

(**أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا**) نص عليه لشدة الافتتان بها وإلا فهي تدخل ضمن (دنيا يصيبها) .

(**فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ**) أي: من حيث أنه لا ثواب له فيها ولا أجر، وقد يكون عليه فيها وزر .

وجاء للمصنف رحمه الله في كتاب لعلم (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ، فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) .

(هجرته) الهجرة هنا : الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والمعنى (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) نية وقصداً (فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ثواباً وحكماً .

١- الحديث دليل على وجوب الإخلاص ، وأن الإنسان ليس له من عمله إلا بقدر نيته ، وأن الأجور في الأعمال الصالحة تعظم بعظيم ما في قلب العبد من سلامة القصد وصحة النية .

والإخلاص : تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين .

والأدلة على وجوب الإخلاص كثيرة :

قال تعالى (قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ) .

وقال تعالى (فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ) .

وقال تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ) .

وقال تعالى (قُلِ اللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصاً لَهُ دِينِي) .

وقال تعالى (قُلْ إِنِي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ الله مُخْلِصاً لَّهُ الدين) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

وقال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى) متفق عليه .

وقال ﷺ (إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغي به وجه الله) رواه النسائي .

وقال ﷺ . قال تعالى (من عمِل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركَه) رواه مسلم .

وعن محمود بن لبيد . أن رسول الله ﷺ قال (إن أخوفَ ما أخاف عليكم الشرك الأصغر ؟ قالوا : وما الشرك الأصغر ؟ قال : الرياء ، يقول الله عز وجل إذا جزى الناس بأعمالهم : اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاء) رواه أحمد .

٢- الحديث دليل على أن العمل لا يقبل إلا إذا كان خالصاً لله تعالى، والعمل الصالح لا يقبل إلا بشرطين:

الأول : أن يكون خالصاً لله .

لحديث الباب .

الثاني : أن يكون موافقاً لسنة النبي ﷺ .

لقوله ﷺ (من عمِل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم .

قال بعض العلماء : حديث (إنما الأعمال بالنيات .....) ميزان للأعمال الباطنة .

وحديث (من أحدث في أمرنا .....) ميزان للأعمال الظاهرة .

٣- والإخلاص له فضائل كثيرة :

أولاً : أنه سبب لمغفرة الذنوب .

والدليل : قصة المرأة الزانية التي سقت الكلب فغفر الله لها "والقصة عند البخاري ومسلم.

قال ابن القيم رحمه الله : فتأمل ما قام في قلبها من حقائق الإيمان والعبودية في هذه اللحظة ، فمنها : أنها لم تعمله ابتغاء الأجر من أحد لأنها تعطي كلباً فلا تنتظر منه جزاء أو شيئاً – وأنه لم يرها أحد إلا الله وهذا يدل عليه ظاهر الحديث – أنها أتعبت نفسها في سقايتها لهذا الكلب فنزلت في البئر مع أنها امرأة ثم ملأت خفها بالماء وحملته بفيها ثم سقت هذا الكلب الحقير ، فتأمل ما قام في قلبها من أسرار الإخلاص فعندما تمت هذه الحقائق في قلبها(أحرقت أنوار هذا القدر من التوحيد ما تقدم منها من البقاء والزنا فغفر الله لها) .

ثانياً : أنه يصرف الفتنه عن القلب .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى (٦٠/١) : فلا تزول الفتنة عن القلب إلا إذا كان دين العبد كلّه لله عز وجل .

ويوسف عليه السلام ما نجى من فتنة المرأة إلا بالإخلاص لله تعالى قال تعالى (كذلك لنصرف عنه السوء والفحشاء إنه من عبادنا المخلصين) .

قال ابن تيمية في الفتاوى (١٠/ ٢٦١) : فإن قوة إخلاص يوسف عليه السلام وخشيته من الله عز وجل كان أقوى من جمال امرأة العزيز وحسنها وحبه لها .

ثالثاً : أنه به تكمل العبودية لله تعالى.

قال الإمام ابن تيمية في الفتاوى (١٩٨/١٠) : وكلما قوي إخلاص العبد كملت عبوديته .

لأن بالإخلاص تقبل الأعمال وترفع إلى الله . وكلما قبل العمل ارتفعت المنزلة والدرجة عند الله تعالى لذلك العبد ، ولهذا كان من أبرز صفات المقربين والسابقين عند الله هو "إخلاصهم لله"فبالإخلاص ارتفعوا عن الناس وأصبحوا في أعالي عليين...

رابعاً : أنه سبب لاستغناء القلب عن الناس .

قال الإمام ابن تيميه في الفتاوى : لا يستغني القلب عن جميع المخلوقات إلا بأن يكون الله هو مولاه الذي لا يعبد إلا إياه ، ولا يستعين إلا به ، ولا يحب إلا له ولا يبغض إلا له .

خامساً : أنه سبب لمضاعفة الحسنات .

قال تعالى (مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) .

قال ابن كثير : وقوله ههنا (وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ) أي : بحسب إخلاصه في عمله .

وقال ﷺ (والحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف ....) رواه البخاري .

قال ابن رجب : ومضاعفة الأجر بحسب كمال الإسلام ، وبكمال وقوة الإخلاص في ذلك العمل .

وقال ﷺ (صلاة الرجل تطوعاً حيث لا يراه الناس تعدل صلاته على أعين الناس بخمس وعشرين درجه) رواه ابن ماجة وصححه الألباني .

سادساً : أنه سبب لقبول الدعاء وتفريج الكرب .

والدليل على ذلك : قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار وفيها أنهم قالوا : اللهم إن كنا فعلنا ذلك ابتغاء وجهك، فافرج عنا ما نحن فيه ففرج الله عنهم ، والقصة معروفه وهي عند البخاري ومسلم .

سابعاً : أنه سبب للنصر على الأعداء .

لحديث سعد ﷺ قال: قال ﷺ (إنما ينصر الله هذه الأمة بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم) .

ثامناً : أنه ينجي العبد من النار يوم القيامة .

لقوله النبي ﷺ (فإن الله حرم على النار من قال لا إله إلا الله يبتغي بها وجه الله) رواه البخاري .

قال ابن تيمية في الفتاوى (٢٦١/١٠) : فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين لا إله إلا الله ، فإن ذلك دليل على أنه لم يحقق إخلاصها المحرم له على النار .

- من أقوال السلف في الإخلاص في العلم :

قال الشافعي : وددت أن الخلق تعلموا هذا العلم _ يقصد علمه _ على أن لا ينسب إليّ حرف منه .

قيل لسهل التستري – رحمه الله – : أي شيء أشد على النفس؟ قال: الإخلاص إذ ليس لها فيه نصيب .

فالنفس تحب الظهور والمدح والرياسة ، وتميل إلى البطالة والكسل ، وزينت لها الشهوات ولذلك قيل : تخليص النيات على العمال أشد عليهم من جميع الأعمال .

وقال بعضهم : إخلاص ساعة نجاة الأبد ، ولكن الإخلاص عزيز .

وقال بعضهم لنفسه : أخلصي تتخلصي .

وقال : طوبى لمن صحت له خطوة لم يرد بها إلا وجه الله .

كان سفيان الثوري يقول : قالت لي والدتي : يا بُني لا تتعلم العلم إلا إذا نويت العمل به ، وإلا فهو وبال عليك يوم القيامة .

وقال إبراهيم النخعي : من ابتغى شيئاً من العلم يبتغي به وجه الله آتاه الله منه ما يكفيه .

وقال الثوري : لو أعلم بالذي يطلب العلم لله لا يريد به إلا ما عند الله لكنت أنا الذي آتيه في منزله فأحدثه بما عندي مما أرجو أن ينفعه الله به .

وقال أبو داود الطيالسي رحمه الله : ينبغي للعالم إذا حرّر كتابه أن يكون قصده بذلك نصرة الدين لا مدحه بين الأقران لحسن التأليف .

وعن عون بن عبد الله قال : كان الفقهاء يتواصون بينهم بثلاث وكتب بذلك بعضهم إلى بعض : من عمل لآخرته كفاه الله دنياه ، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته ومن أصلح ما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس .

وقال أبو يوسف : يا قوم ، أريدوا الله بعلمكم ، فإني لم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أتواضع إلا لم أقم حتى أعلُوهم ، ولم أجلس مجلساً قط أنوي فيه أن أعلوهم إلا لم أقم حتى أُفتضح .

قال الأعمش : إن لي عشرين سنة ما رأيت مخلصاً في علمه إنما صار العلم حرفة للمفاليس .

٤– فعلى قدر صدق الإنسان وإخلاصه يحفظ :

قال ابن عباس : إنما يحفظ الرجل على قدر نيته

فعلى طالب العلم أن يحذر من الرياء وطلب الرياسة والمنزلة :

قال حمد بن سلمة : من طلب الحديث لغير الله مكر به .

وقال إسرائيل بن يونس : من طلب هذا العلم لله شرُف وسعُد في الدنيا والآخرة ، ومن لم يطلبه لله خسر في الدنيا والآخرة .

٥–علامة كون العلم لله :

قال مالك بن دينار : إن العبد إذا طلب العلم للعمل كسره علمُهُ ، وإذا طلبه لغير ذلك ازداد به فجورا أو فخراً .

قال الذهبي : فَمَن طلبَ العلمَ للآخرة كَسَرَه العلمُ وخشع لله .

قال بعض السلف : من ازداد علما ولم يزدد خشية فليتهم علمه .

سُئِلَ الحافظ عبد الغني المقدسي :

لِمَ لا تقرأ من غير كتاب ؟ قال : أخاف العجب [السير ٢١/٤٤٩] .

وقد قيل لذي النون المصري – رحمه الله تعالى – : متى يعلم العبد أنه من المخلصين ؟ فقال: إذا بذل المجهود في الطاعة ، وأحب سقوط المنزلة عند الناس .

وقيل ليحيى بن معاذ ـ رحمه الله تعالى ـ : متى يكون العبد مخلصاً ؟ فقال: إذا صار خلقه كخلق الرضيع ، لا يبالي من مدحه أو ذمه .

قال النووي : من علامة المخلص أن يتكدر إذا اطلع الناس على محاسن عمله كما يتكدر إذا اطلعوا على مساويه فإن فرح النفس بذلك معصية وربما كان الرياء أشد من كثير من المعاصي .

قال ابن جماعة : حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به ، وتنوير قلبه، وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة ، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه ، وعظيم فضله .

وقال ابن القيم : لا يكون المتعلم ناجياً إلا بهذه الأمور الثلاثة : المخلص في تعلمه ، المتعلم ما ينفعه ، العامل بما علِمَه .

٦- قوله (**فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ**) .

معناها (فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) نية وقصداً (فَهِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ) ثواباً وحكماً .

وهذا مثل ضربه الرسول ﷺ للعمل الذي يراد به وجه الله والذي يراد به غير الله ، وذلك بالهجرة :

فبعض الناس يهاجر ويدع بلده لله تعالى وابتغاء مرضاته فهذا هجرته لله ويؤجر عليها كاملاً . ويكون أدرك ما نوى ، وبعض الناس يهاجر لأغراض دنيوية ، كمن هاجر من بلد الكفر إلى بلد الإسلام من أجل المال ، أو من أجل امرأة يتزوجها ، فهذا هاجر لكنه لم يهاجر لله ، ولهذا قال الرسول : فهجرته إلى ما هاجر إليه .

- وقوله ﷺ (ومن كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ) أي : هو أظهر للناس أنه مهاجر لله لكن في نيته أنه هاجر من أجل امرأة يتزوجها أو من أجل دنيا يصيبها .

قال ابن الملقن : إن قلت لم ذم على طلب الدنيا وهو أمر مباح لا ذم فيه ولا مدح ؟

قلت : إنما ذم لكونه لم يخرج في الظاهر لطلب الدنيا ، وإنما خرج في صورة طالب فضيلة الهجرة فأبطن خلاف ما أظهر .

٧- الحديث دليل على فضل الهجرة لله ، حيث ضرب النبي ﷺ بها مثلاً في هذا الأصل الأصيل من قواعد الدين .

والهجرة لغة : الترك وشرعاً : ترك ما لا يحبه الله ويرضاه إلى ما يحبه الله ويرضاه .

- والهجرة فضلها عظيم :

قال تعالى (وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَماً كَثِيراً وَسَعَةً) .

ففي هذه الآية وعد الله تعالى أن من هاجر في سبيله سيجد أمرين :

أولهما : مراغماً كثيراً .

وثانيهما : سعة .

والمراد بالأمر الأول كما يقول الرازي : (مراغماً) ومن يهاجر في سبيل الله إلى بلد آخر يجد في أرض ذلك البلد من الخير والنعمة ما يكون سبباً لرغم أنف أعدائه الذين كانوا معه في بلدته الأصلية .

والمراد بالأمر الثاني (سعة) السعة في الرزق .

- وهي ٣ أنواع :

الأول : هجرة ترك المعاصي ، كما قال ﷺ (والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه) رواه البخاري .

والثاني : مفارقة الدار والتحول عنها ، وهذا له صور أعظمها مفارقة بلد الشرك إلى بلد الإسلام .

والثالث : وهي أعظمها ؛ هجرة القلوب : وهي الهجرة العظيمة ، وهي إلى الله بالإخلاص وإلى رسوله ﷺ بالمتابعة .

٨- الحديث دليل على أن الأعمال قد تتفق صورة وتختلف قصداً وثواباً وأجراً .

٩- الحديث دليل على التحذير من الدنيا وفتنتها .

قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ) .

وقال ﷺ : (إن مما أخاف عليكم من بعدي ما يفتح عليكم من زهرة الدنيا) . متفق عليه

قال ابن الحنفية : من كرمت عليه نفسه هانت عليه الدنيا .

قيل لعلي : صف لنا الدنيا ؟ فقال : ما أصف من دار ؟ أولها عناء ، وآخرها فناء ، حلالها حساب ، وحرامها عقاب ، من استغنى فيها فتن ، ومن افتقر فيها حَزن .

قال ابن القيم : الدنيا كامرأة بغي لا تثبت مع زوج ، إنما تخطب الأزواج ليستحسنوا إليها ، فلا ترضى إلا بالدياثة .

وقال : الدنيا لا تساوي نقل أقدامك إليها ، فكيف تعدو خلفها .

وقال : على قدر رغبة العبد في الدنيا ورضاه بها يكون تثاقله عن طاعة الله وطلب الآخرة .

وقال بعض الزهاد : دع الدنيا لأهلها كما تركوا هم الآخرة لأهلها .

وقال الحسن البصري : من نافسك في دينك فنافسه ، ومن نافسك في دنياك فألقها في نحره " .

قال الشاعر في وصف الدنيا :

أحلامُ نومٍ أو كظلٍ زائلٍ إن اللبيبَ بمثلها لا يخدع

وقال آخر :

الدنيا ساعةْ فاجعلها طاعةْ

والنفس طماعةْ عوّدها القناعةْ

١٠- التحذير من فتنة النساء لقوله (أو امرأة ..) وخصها بالذكر لشدة الافتتان بها .

قال ﷺ (ما تركت بعدي فتنة أضر على الرجال من النساء) متفق عليه .

وقال ﷺ (.. فاتقوا الدنيا واتقوا النساء فإن أول فتنة بني إسرائيل كانت في النساء) . رواه مسلم

ومما يدل على خطورة هذه الفتنة أن الله بدأ بها في قوله تعالى (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) .

قال ابن كثير : فبدأ بالنساء لأن الفتنة بهن أشد .

قال سعيد بن المسيب : ما يئس الشيطان من شيء إلا أتاه من قِبَل النساء .

وقال أبو صالح السمان : بلغني أن أكثر ذنوب أهل النار في النساء .

١١- استشكل وضع حديث (إنما الأعمال بالنيات) في بداية كتاب بدء الوحي مع أنه لا علاقة له ؟

ساد الرأي عند أغلب العلماء أن الإمام البخاري أقام حديث " إنما الأعمال بالنيات" في بداية الصحيح مقام خطبة الكتاب. ويبدو أن هذه الحقيقة كانت معروفة عند شيوخ البخاري، أو على عهد شيوخه على أقل تقدير.

ورد في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي بسنده عن محمد بن سليمان بن فارس قال : سمعت محمد بن إسماعيل يقول – يعني: البخاري – مَن أراد أن يؤلف كتاباً فليبدأ بحديث: " إنما الأعمال بالنيات" .

وجاء في كتاب الأذكار من كلام سيد الأبرار النووي : أن السلف ومن تبعهم من الخلف رحمهم الله تعالى، يستحبون استفتاح المصنفات بهذا الحديث "إنما الأعمال بالنيات" تنبيهاً للمُطالع على حسن النية واهتمامه بذلك والاعتناء به. يقول :وروينا عن الإمام أبي سعيد عبد الرحمن بن مَهدي رحمه الله تعالى: مَن أراد أن يُصنف كتاباً فليبدأ بهذا الحديث.

وقال الإمام أبو سليمان الخطابي : كان المتقدمون من شيوخنا يستحبون تقديم حديث الأعمال بالنية أمام كل شيء يُنشأُ ويُبتدأ من أمور الدين لعموم الحاجة إليه في أنواعها .

وقال ابن بطال : في شرحه لصحيح البخاري :وإنما قدَّم البخاري رحمه الله حديث الأعمال بالنيات في أول كتابه؛ ليُعلم أنه قصد في تأليفه وجهَ الله عز وجل، ففائدة هذه المعنى، أن يكون تنبيهاً لكل مَن قرأ كتابَه، أن يَقْصد وجه الله تعالى، كما قصده البخاري في تأليفه.

(٢) عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ (أَنَّ الْحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ ﷺ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الْوَحْيُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ – وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ – فَيُفْصَمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ ، وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ » . قَالَتْ عَائِشَةُ (وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ الْوَحْيُ فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ ، فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً).

[م : ٢٣٣٣] .

==========

(**عن عائشة**) أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق ، كانت أحب النساء إلى النبي ﷺ ، كانت على جانب كبير من الفضل والعلم مات سنة : ٥٨ هـ

(**أن الحارث بن هشام**) ابن المغيرة المخزومي شقيق أبي جهل ، أسلم عام الفتح ، خلّف اثنين وثلاثين ولداً منهم عبد الرحمن بن الحارث أحد الفقهاء السبعة .

(**كيف يأتيك الوحي**) أي كيفية نزوله .

(**أَحْيَاناً يَأْتِينِي مِثْلَ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ**) أي : يأتيني في مثل صلصلة الجرس .

قال العيني : والصلصلة الصوت الذي لا يفهم معناه أول وهْلة ، وقال الحافظ : الصلصلة في الأصل : صوت وقوع الحديد بعضه على بعض ، ثم أطلق على كل صوت له طنين .

(**الْجَرَسِ**) هو الجلجل الذي يعلق في رؤوس الدواب .

(**فَيُفْصَمُ عَنِّي**) أي : يُقلع ويتجلى ما يغشاني ، وأصل الفصم القطع [قاله في الفتح] .

(**وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ**) أي : هذا النوع من الوحي ، أشد أنواع الوحي علي .

(**وَقَدْ وَعَيْتُ عَنْهُ مَا قَالَ**) أي : حفظت وفهمت .

(**وَأَحْيَاناً يَتَمَثَّلُ لِيَ الْمَلَكُ رَجُلاً**) أي : وفي بعض الأوقات يصل إليّ الوحي عن طريق الالتقاء الشخصي بالملك الذي يحمله ، فيأتي الملك إلى النبي ﷺ في صورة إنسان من البشر ، والملك للعهد ، والمعهود هو جبريل ، وقد وقع التصريح به في رواية ابن سعد .

(**فَأَعِي مَا يَقُولُ**) زاد أبو عوانة : (وهو أهونه عليّ)

(وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقاً) أي : يسيل .

١- الحديث دليل على أن الوحي له مراتب :

منها : الرؤيا الصادقة ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح .

كما في حديث عائشة الآتي إن شاء الله .

ومنها : ما كان يلقيه الملَك في روعه من غير أن يراه .

كما قال النبي ﷺ (إن روح القدس نفث في روعي أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها ..) رواه ابن ماجه .

ومنها : أنه كان يتمثل له الملك رجلاً ، فيخاطبه حتى يعي عنه ما يقول له ، وفي هذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً .

ومنها : أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس .

كما في حديث الباب .

ومنها : أنه يرى الملك في صورته التي خلق عليها ، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيه ، وهذا وقع له مرتين .

ومنها : ما أوحاه الله وهو فوق السماوات ليلة المعراج من فرض الصلاة وغيرها .

ومنها : كلام الله له منه إليه بلا واسطة ملك ، كما ثبت ذلك في حديث الإسراء .

٢- الحديث دليل على أن الوحي كله شديد وهذه الصفة – مثل صلصلة الجرس – أشدها .

ومن الأدلة على شدته :

ما رواه أحمد في مسنده عن عائشة (أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ناقته وضعت جرانها ، فلم تستطع أن تتحرك) .

وعن زيد بن ثابت (أن النبي ﷺ أملى عليه : لا يستوي القاعدون من المؤمنين والمجاهدون في سبيل الله ، فجاء ابن أم مكتوم وهو يملها عليّ ، قال يا رسول الله : لو أستطيع الجهاد معك لجاهدت ، وكان أعمى ، فأنزل الله على رسوله ﷺ وفخذه على فخذي ، فثقلت عليّ حتى خفت أن ترض فخذي ، ثم سري عنه ، فأنزل الله : غير أولي الضرر) رواه البخاري .

٣- قيل سبب شدته : أن الكلام العظيم له مقدمات تؤذن بتعظيمه للاهتمام به كما سيأتي في حديث ابن عباس (وكان يعالج من التنزيل شدة) .

وقال بعضهم : وإنما كان شديداً عليه ليستجمع قلبه فيكون أوعى لما سمع .

وقيل : إنه إنما كان ينزل هكذا إذا نزلت آية وعيد أو تهديد وفيه نظر .

والظاهر أنه لا يختص بالقرآن ، كما سيأتي بيانه في حديث يعلى بن أمية في قصة لابس الجبة المتضمخ بالطيب في الحج ، فإنه فيه أنه رآه حال نزول الوحي عليه ، وإنه ليغط .

وفائدة هذه الشدة ما يترتب على المشقة من زيادة الزلفى والدرجات . (الفتح) .

٤- الحديث دليل على إثبات وجود الملائكة وقدرتهم على التشكل بأشكال مختلفة .

٥- الحديث فيه دليل على تنوع طرق العلم .

٦- حرص الصحابة على معرفة أحوال النبي ﷺ .

(٣) عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ أَنَّهَا قَالَتْ (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ – وَهُوَ التَّعَبُّدُ – اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ ، فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا ، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ اقْرَأْ . قَالَ « مَا أَنَا بِقَارِئٍ » . قَالَ « فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ . قُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ اقْرَأْ . فَقُلْتُ مَا أَنَا بِقَارِئٍ . فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ) » . فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ رضى الله عنها فَقَالَ « زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي » . فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ « لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي » . فَقَالَتْ خَدِيجَةُ كَلاَّ [أبشر ف] وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً ، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، [وتصدُقُ الحديث] وَتَحْمِلُ الْكَلَّ ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِى الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ . فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ – وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ ، وَكَانَ شَيْخاً كَبِيراً قَدْ عَمِىَ – فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنَ ابْنِ أَخِيكَ . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابْنَ أَخِي مَاذَا تَرَى فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى . فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ﷺ يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً ، لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ . فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ » . قَالَ نَعَمْ ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ مَا جِئْتَ بِهِ إِلاَّ عُودِيَ ، وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً . ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ وَفَتَرَ الْوَحْيُ) .

[م : ١٦٠] .

(٤) عن أَبِي سَلَمَةَ بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ (أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَ قَالَ – وَهُوَ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ فَقَالَ – فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتاً مِنَ السَّمَاءِ ، فَرَفَعْتُ بَصَرِي فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ ، فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ زَمِّلُونِي . فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ) إِلَى قَوْلِهِ (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ) فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ) .

[م : ١٦١] .

==========

(أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ) يحتمل أن تكون (من) تبعيضية ، أي : من أقسام الوحي ، ويحتمل أن تكون بيانية .

(الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ) وفي رواية (الصادقة) وهي التي ليس فيها ضغث ، وبدئ بذلك ليكون تمهيداً وتوطئة لليقظة .

(فِي النَّوْمِ) لزيادة الإيضاح .

(مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ) : أي : جاءت مجيئاً مثل فلق الصبح ، والمراد بفلق الصبح ضياؤه ، وخص بالتشبيه لظهوره الواضح الذي لا شك فيه .

(ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ) الخلاء الخلوة ، والسر فيه أن الخلوة فراغ القلب لما يتوجه إليه .

(بِغَارِ حِرَاءٍ) حِراء جبل معروف بمكة ، والغار نقب في الجبل وجمعه غيران .

(فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ) أي : بمعنى ينحنف ، أي : يتبع الحنيفية وهي دين إبراهيم .

(**وَهُوَ التَّعَبُّدُ**) : هذا مدرج في الخبر ، وهو من تفسير الزهري كما جزم به الطيبي .

(**حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ**) أي : الأمر الحق وفي رواية في التفسير (حتى فَجِئه الحق) بكسر الجيم ، وسمي حقاً لأنه وحي من الله .

(**قَالَ مَا أَنَا بِقَارِئٍ**) أي : ما أحسن القراءة .

(**فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي**) الغط حبس النفس ، ومنه غطه في الماء، ولأبي داود الطيالسي في مسنده بسند حسن (فأخذ بحلقي) .

(**حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ**) أي : بلغ مني الجهد مبلغه .

(**ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ : اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**) : أي : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، أي : لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك ، لكن بحول ربك وإعانته ، فهو يعلمك كما خلقك .

(**فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ**) أي : بالآيات أو بالقصة .

(**فَزَمَّلُوهُ**) أي : لفوه ، والرَوع بالفتح الفزع .

(**لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي**) اختلف العلماء في الخشية المذكورة ، فقيل : الجنون وأن يكون ما رآه من حنس الكهانة ، وقيل : الهاجس ، وقيل : الموت من شدة الرعب ، وقيل : المرض ، وقيل : دوام المرض ، وقيل : العجز عن حمل أعباء النبوة ، وأولى هذه الأقوال بالصواب وأسلمها من الارتياب الثالث واللذان بعده .

(**فَقَالَتْ خَدِيجَةُ**) بنت خويلد .

(**كَلاَّ**) معناه النفي والإبعاد .

(**وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَداً**) أي : أقسم بالله أنه لن يصيبك هوان أو مكروه ، واستدلت على ذلك بأمر استقرائي وهو أنه يصنع المعروف لكل أحد ويساعدهم .

(**وَتَحْمِلُ الْكَلَّ**) بفتح الكاف وتشديد اللام ، وهو من لا يستقل بأمره .

(**وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ**) قال القاضي عياض : رويناه عن الأكثر بفتح التاء ، ومعناه : وصفته بحسن الحظ في التجارة ، فهي تقول : إنك تكسب من المال ما لا يكسبه غيرك ، وتربح في تجارتك ما لا يربحه سواك ، وقد كانت العرب لا سيما قريش يتمدحون بكسب المال .

قال النووي : وهذا القول حكاه القاضي عن ثابت صاحب الدلائل وهو ضعيف أو غلط، وأي معنى لهذا القول في هذا الموطن، إلا أنه يمكن تصحيحه بأن يُضم إليه زيادة ، فيكون معناه : تَكسب المال العظيم الذي يَعجز عنه غيرك ، ثم تجود به في وجوه الخير وأبواب المكارم .

وأما بضم التاء : فمعناه أنه كريم جواد يعطي الناس ما لا يعطيهم غيره .

(**وَتَقْرِي الضَّيْفَ**) أي : وتقوم بضيافة الضيف .

(**وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ**) هي كلمة جامعة لأفراد ما تقدم ولما لم يتقدم .

(**وتصدق الحديث**) وهي من أشرف الخصال .

(**وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلِ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى ابْنَ عَمِّ خَدِيجَةَ – وَكَانَ امْرَأً تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ**) أي : صار نصرانياً ، وكان قد خرج هو وزيد بن عمرو بن نفيل لما كرها عبادة الأوثان إلى الشام وغيرها يسألون عن الدين ، فأما ورقة فأعجبه دين النصرانية فتنصر ، وكان لقي من بقي من الرهبان على دين عيسى ولم يبدل، ولهذا أخبر بشأن النبي ﷺ والبشارة به ، وأما زيد بن عمرو فسيأتي خبره إن شاء الله .

(**وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعِبْرَانِيَّ ، فَيَكْتُبُ مِنَ الإِنْجِيلِ بِالْعِبْرَانِيَّةِ**) وإنما وصفته بكتابة الإنجيل دون حفظه لأن حفظ التوراة والإنجيل لم يكن متيسراً كتيسر حفظ القرآن الذي خصت به الأمة .

(**فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى ﷺ**) أشار بقوله (هذا) إلى الملك الذي ذكره النبي ﷺ في خبره ، ونزله منزلة القريب لقرب ذكره ، والناموس صاحب السر ، والمراد به هنا جبريل عليه السلام .

(**عَلَى مُوسَى ﷺ**) ولم يقل على عيسى مع كونه نصرانياً ، لأن كتاب موسى مشتمل على أكثر الأحكام بخلاف عيسى ، أو لأن موسى بعث بالنقمة على فرعون ومن معه بخلاف عيسى ، أو قاله تحقيقاً للرسالة ، لأن نزول جبريل على موسى متفق عليه بين أهل الكتاب بخلاف عيسى ، فإن كثيراً من اليهود ينكرون نبوته .

(**يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعاً**) أي : أيام الدعوة ، والجَذع : هو الصغير من البهائم ، كأنه تمنى أن يكون عند ظهور الدعاء إلى الإسلام شاباً ليكون أمكن لنصره ، وبهذا يتبين سر وصفه بكونه كان كبيراً أعمى .

(**لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ**) أراد بهذا التمني التنبيه على صحة ما أخبره به .

(**فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : أَوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ**) استبعد النبي ﷺ أن يخرجوه ، لأنه لم يكن فيه سبب يقتضي الإخراج .

(**إِلاَّ عُودِيَ**) وفي التفسير (إلا أوذي) ذكر ورقة أن العلة في ذلك مجيئه لهم بالانتقال عن مألوفهم ، ولأنه علم من الكتب أنهم لا يجيبونه إلى ذلك ، وأنه يلزمه لذلك منابذتهم ومعاندتهم فتنشأ العداوة من ثم .

(**وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ**) وفي التفسير للمصنف (حياً) .

(**أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً**) أي : قوياً .

(**ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ**) أي : لم يلبث .

(**وَفَتَرَ الْوَحْيُ**) أي : انقطع .

(**عن أَبِي سَلَمَةَ بْن عَبْدِ الرَّحْمَنِ**) بن عوف الزهري المدني ، ثقة مكثر فقيه مات سنة : ٩٤ هـ .

(**أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ الأَنْصَارِيَّ**) بن عمرو بن حرام الصحابي ابن الصحابي ، توفي بعد السبعين .

(**يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الْوَحْيِ**) أي : عن احتباسه وعدم تتابعه .

(**فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ**) وهو جبريل عليه السلام .

(**فَرُعِبْتُ مِنْهُ**) أي : فزعت منه .

(**فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ**) المدثر والمزمل بمعنى واحد ، أي : المدثر بثيابه .

(**قُمْ فَأَنْذِرْ**) أي : خوّف أهل مكة وحذرهم العذاب إن لم يسلموا .

(**وَالرُّجْزَ**) الأصنام .

(**فَاهْجُرْ**) أي : اترك .

(**فَحَمِيَ الْوَحْيُ وَتَتَابَعَ**) أي : استمر نزوله .

١- الحديث دليل على أن رؤيا الأنبياء جميعاً وحي إلهي ، ولهذا أقدم إبراهيم على ذبح ابنه .

٢- الحديث دليل على أن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة .

٣- الحديث دليل على فضل الخلوة والعزلة أحياناً ليتفرغ للعبادة والطاعة .

٤- الحديث دليل على أن أول ما أنزل من القرآن هذه الآيات (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ) .

قال ابن القيم : وهذا قول عائشة والجمهور .

وقال النووي : الصواب أن أول ما أنزل على الإطلاق اقرأ باسم ربك .

فإن قيل : ما الجواب عن حديث جابر (أول ما أنزل يا أيها المدثر) فالجواب عليه من وجوه ؟

قال النووي : وأما (يا أيها المدثر) فكان نزولها بعد فترة الوحي كما يدل عليه حديث جابر ، والدلالة صريحة فيه في مواضع :

منها : قوله (وهو يحدث عن فترة الوحي ، إلى أن قال فأنزل الله يا أيها المدثر) .

ومنها : قوله ﷺ (فإذا الملك الذي جاءني بحراء ثم قال : فأنزل الله تعالى (يا أيها المدثر) .

فالصواب أن أول ما أنزل : اقرأ باسم ربك الذي خلق ، وأول ما نزل بعد فترة الوحي يا أيها المدثر .

- وقال ابن القيم مرجحاً هذا القول : وقول عائشة أصح لوجوه :

أحدها : قوله ﷺ (ما أنا بقارئ) صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً .

الثاني : الأمر بالقراءة في الترتيب قبل الأمر بالإنذار .

الثالث : أن حديث جابر وقوله (أول ما أنزل من القرآن (يا أيها المدثر) قول جابر ، وعائشة أخبرت عن خبره ﷺ عن نفسه بذلك .

٥- الحديث دليل ذكاء خديجة وفطنتها ورجحان عقلها ، وهذا مستنبط من تصرفها إزاء ما وقع للنبي ﷺ .

ومن فضائلها :

- تزوجها قبل النبوة ولها أربعون سنة ، ولم يتزوج عليها حتى ماتت ، وأولاده كلهم منها إلا إبراهيم .
- وهي التي آزرته على النبوة وجاهدت معه وواسته بنفسها ومالها .
- وأرسل الله إليها السلام مع جبريل ، وهذه خاصية لا تُعرف لامرأة سواها .
- ماتت قبل الهجرة بثلاث سنين .

٦- الحديث دليل على ما كان عليه النبي ﷺ من الأخلاق الكريمة قبل وبعد النبوة .

٧- الحديث دليل على أن مكارم الأخلاق وخصال الخير سبب للسلامة من مصارع السوء ، وأنواع المكاره ، فمن كثر خيره ، حسنت عاقبته ، ورجي له سلامة الدين والدنيا .

قال عمرو بن العاص : في كل شيء سَرَفٌ إلا في ابتناء المكارم أو اصطناع المعروف ، أو إظهار مروءة .

قال الشاعر :

ولم أر كالمعروف أما مذاقه --- فحلوٌ وأما وجهه فجميل .

ومن أعظم فوائد قضاء الحوائج : حفظ الله لعبده في الدنيا كما في الحديث القدسي (يا ابن آدم أنفق ينفق عليك) وقد قيل (صنائع المعروف تقي مصارع السوء) .

قال ابن عباس : صاحب المعروف لا يقع فإن وقع وجد متكئاً .

كان خال القسري يقول على المنبر : أيها الناس عليكم بالمعروف فإن فاعل المعروف لا يعدم جوازيه وما ضعف عن أدائه الناس قوي الله على جوازيه .

قال الحطيئة : من يفعل الخير لا يعدم جوازه --- لا يذهب العرف بين الله والناس

ومن أهم آداب فعل المعروف : الإخلاص في الأعمال وعدم المن بها .

قال عبد الله بن عباس – رضي الله عنهما : لا يتم العمل إلا بثلاث تعجيله وتصغيره وستره فإنه إذا عجله هنَّأه وإذا صغَّره عظمه وإذا ستره تممه .

وقالوا : المنة تهدم الصنيعة .

أفسدت بالمنِّ ما أسديت من عمل --- ليس الكريم إذا أسدى بمنان

قال رجل لأبن شبرمة : فعلت بفلان كذا وكذا ، وفعلت به كذا فقال : لا خير في المعروف إذا أحصي.

وعلم أن من علامات الإخلاص : استواء المدح والذم من العامة ، ونسيان رؤية الأعمال في الأعمال ، واقتضاء ثواب الأعمال في الآخرة .

٨- الحديث دليل على فضل الأعمال التي فيها النفع المتعدي، كصلة الأرحام، ومساعدة الضعفاء والمحتاجين وقد جاء في رواية (وتصدق الحديث) وهي من أشرف الخصال، وفي رواية (وتؤدي الأمانة) .

٩- الحديث دليل على جواز مدح الإنسان بوجهه ، وسيأتي أن المدح في الوجه جائز بشرطين : أن يأمن الفتنة، وللمصلحة .

١٠- الحديث دليل على استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه .

١١- الحديث دليل على أن من نزل به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصيحته وصحة رأيه .

١٢- في الحديث إرشاد إلى أن صاحب الحاجة يقدم بين يديه من يعرّف بقدره ممن يكون أقرب منه إلى المسئول ، وذلك مستفاد من قول خديجة (اسمع من ابن أخيك) أرادت بذلك أن يتأهب لسماع كلام النبي ﷺ ، وذلك أبلغ في التعليم .

١٣- الحديث دليل على فضل العلم . **قال ابن القيم** : أول سورة أنزلها الله في كتابه سورة القلم ، فذكر فيها ما منّ به على الإنسان من تعليمه ما لم يعلم ، فذكر فيها فضله بتعليمه وتفضيله الإنسان بما علمه إياه ، وذلك يدل على شرف التعليم والعلم .

١٤- الحث على العلم والقراءة وأن ذلك قبل القول والعلم .

١٥- أن المرأة العاقلة الصالحة سكن لزوجها .

١٦- جواز أن يتحدث الرجل إلى زوجته بعض مخاوفه وشؤونه الخاصة إذا علم رجحان عقلها .

١٧- أن صاحب الواقعة أولى بذكرها من غيره ، لأن خديجة رضي الله عنها أحالت عليه .

١٨- أن العالِم بالشيء يعرف مآله على جري العادة، له أن يحكم بالمآل إذا رأى المبادئ، لأن ورقة لما أن علم برسالته علم بإخراجه.

١٩- أن التجربة تحدث علماً زائداً ، فإنه ﷺ طرد الحُكم وقاس عليه ، وورقة أخبر بما جرت به العادة وأفادته التجربة ، ولهذا قال لقمان لولده : يا بني عليك بذوي التجارب .

٢٠- أن من نفع الناس بالمال أو الأخلاق فإنه يُنصر ولا يخذل .

٢١- فضل ورقة بن نوفل .

٢٢- أهمية سؤال أهل العلم والذكر والاختصاص .

٢٣- جواز تمني المستحيل إذا كان في فعل الخير ، لأن ورقة تمنى أن يعود شاباً ، وهو مستحيل عادة ، قال ابن حجر : ويظهر لي أن التمني ليس مقصوداً على بابه ، بل المراد من هذا التنبيه على صحة ما أخبره به ، والتنويه بقوة تصديقه فيما يجيء به .

٢٤- سنة الابتلاء للأنبياء والإخراج من أوطانهم .

٢٥- أن سنة الله واحدة في عداء أهل الباطل لأهل الحق .

٢٦- فيه توقير الكبير .

٢٧- بيان أن أول ما نزل بعد (اقرأ) قوله تعالى (يا أيها المدثر ...) .

٢٨- بيان انقطاع الوحي عن رسول الله ﷺ بعد نزول (اقرأ ..) .

فائدة :

بعد نزول الوحي على النبي ﷺانقطع الوحي مدة ، واختلف في مدتها :

قال القرطبي : والراجح ما رواه البيهقي من أنها كانت ستة أشهر .

وقيل : أنها كانت أربعين يوماً .

وقيل : كانت أياماً .

فائدة :

جاء الوحي للرسول ﷺ لأول مرة في يوم الاثنين ، الحادي والعشرين من شهر رمضان من العام الأربعين لميلاده ﷺ بينما كان يتحنث بغار حراء .

(٥) عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ) قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً ، وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ – فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا . وَقَالَ سَعِيدٌ أَنَا أُحَرِّكُهُمَا كَمَا رَأَيْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يُحَرِّكُهُمَا . فَحَرَّكَ شَفَتَيْهِ – فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ) قَالَ جَمْعُهُ لَهُ فِي صَدْرِكَ ، وَتَقْرَأَهُ (فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ) قَالَ فَاسْتَمِعْ لَهُ وَأَنْصِتْ (ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ) ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ تَقْرَأَهُ . فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ إِذَا أَتَاهُ جِبْرِيلُ اسْتَمَعَ ، فَإِذَا انْطَلَقَ جِبْرِيلُ قَرَأَهُ النَّبِيُّ ﷺ كَمَا قَرَأَهُ) .

[م / ٤٤٨] .

==========

(**عن سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ**) الأسدي الكوفي ثقة ثبت فقيه قتل سنة : ٩٥ .

(**عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ**) هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب الهاشمي القرشي ، حبر الأمة وفقيهها ، وترجمان القرآن ، ولد قبل الهجرة بثلاث سنين ، دعا له الرسول ﷺ بقوله (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل) ، فأدرك علماً كثيراً ، توفي رسول الله ﷺ وقد ناهز الاحتلام ، مات بالطائف سنة (٦٨) هـ وصلى عليه محمد بن الحنفية وقال : مات اليوم رباني هذه الأمة .

(**فِي قَوْلِهِ تَعَالَى**) أي : في توضيح معانيه ، وبيان سبب نزوله .

(**لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ**) قال ابن كثير : هذا تعليم من النبي ﷺ لرسوله ﷺ في كيفية تلقيه الوحي من الملك ، فإنه كان يبادر إلى أخذه ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله إذا جاءه الملك بالوحي أن يستمع له ، وتكفل الله له أن يجمعه في صدره ، وأن ييسر لأدائه على الوجه الذي ألقاه إليه

(**قَالَ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُعَالِجُ مِنَ التَّنْزِيلِ شِدَّةً**) المعالجة : مسابقة الشيء بمشقة .

(**وَكَانَ مِمَّا يُحَرِّكُ شَفَتَيْهِ**) قيل : كثيراً ما كان يفعل ذلك ، وقيل : هذا من شأنه ودأبه .

(**فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ فَأَنَا أُحَرِّكُهُمَا لَكُمْ كَمَا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَرِّكُهُمَا**) فائدة هذا زيادة البيان في الوصف على القول .

قال ابن حجر : ابن عباس لم ير النبي ﷺ في تلك الحالة ، لأن سورة القيامة (مكية) باتفاق ، بل الظاهر أن نزول هذه الآيات كان في أول الأمر ولم يكن ابن عباس إذ ذاك ولد ، لأنه ولد قبل الهجرة بثلاث سنين، لكن يجوز أن يكون النبي ﷺ أخبره بذلك

بعْدُ ، أو بعض الصحابة أخبره أنه شاهد النبي ﷺ ، والأول هو الصواب ، فقد ثبت صريحاً عند أبي داود الطيالسي في مسنده عن أبي عوانة بسنده بلفظ : قال ابن عباس : فأنا أحرك لك شفتي كما رأيت رسول الله ﷺ .

وأما سعيد بن جبير فرأى ذلك من ابن عباس بلا نزاع .

(**فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى (لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ)** الضمير يعود على القرآن ، أي : لا تعجل بقراءة القرآن ما دام جبريل يقرؤه .

(**لِتَعْجَلَ بِهِ**) أي : لتأخذه على عجلة .

(**إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ**) أي : في صدرك .

١- الحديث دليل على بيان ما كان النبي ﷺ يلقاه من معالجة الشدة عند نزول الوحي عليه ، وذلك لثقل الوحي .

٢- الحديث دليل على أن الله تكفل لرسوله ﷺ أن لا ينسى القرآن ، وأنه بعد نزول هذه الآية يستمع ، وينصت لجبريل ، فإذا انتهى جبريل من قراءته وذهب من عنده ، قرأه النبي ﷺ على أصحابه كما أقرأه من غير زيادة ولا نقص .

٣- في الحديث الإشارة إلى أن أحداً لا يحفظ القرآن إلا بعون الله تعالى .

٤- وفيه خوفه ﷺ من التقصير في البلاغ .

٥- وفيه أن حسن الاستماع من أسباب حصول العلم .

(٦) **عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدَ النَّاسِ ، وَكَانَ أَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ ، وَكَانَ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ ، فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)** .

[م : ٢٣٠٨] .

==========

(**أَجْوَدَ النَّاسِ**) أي : أكثر الناس جوداً ، والجود الكرم ، وهو من الصفات المحمودة .

(**وَكَانَ يَلْقَاهُ في كل ليلة**) أي : يلقى رسول الله ﷺ .

(**فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ**) من المدارسة ، وهي المقَارأة والمذاكرة ، أي : يقارئه ويذاكره ، تذكيراً له وتثبيتاً لحفظه .

(**فَلَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ**) أي : المطلقة ، يعني أنه في الإسراع بالجود أسرع من الريح ، وعبر بالمرسلة : إشارة إلى دوام هبوبها بالرحمة ، وإلى عموم النفع بجوده كما تعم الريح المرسلة جميع ما تُهب عليه .

١- الحديث دليل على جود النبي ﷺ وكرمه وخاصة في رمضان .

وقد كان النبي ﷺ من أجود الناس :

فقد جاء عن أنس قال (كان النبي ﷺ أشجع الناس ، وأجود الناس ..) رواه البخاري .

وعن جابر قال (ما سئل رسول الله ﷺ شيئاً فقال : لا) رواه البخاري .

٢- الحكمة في أن جوده يتضاعف عند مدارسة القرآن ، قال الحافظ : أن مدارسة القرآن تجدد له العهد بمزيد غنى النفس ، والغنى سبب الجود ، وأيضاً رمضان موسم الخيرات ، لأن نعم الله على عباده فيه زائدة على غيره ، فكان النبي ﷺ يؤثر متابعة سنة الله في عباده ، فبمجموع ما ذكر من الوقت والمنزول به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود .

٣- الزيادة من الخير عند الاجتماع بأهل الصلاح .

٤- الحث على الجود في كل وقت .

٥- زيارة الصلحاء وأهل الخير ، وتكرار ذلك إذا كان المزور لا يكره ذلك .

٦- الإكثار من قراءة القرآن في رمضان .

٧- جواز أن يقال : رمضان ، وأنه لا يكره قوله رمضان من غير إضافة شهر ، ومما يدل على جواز ذلك :

قوله ﷺ (لا تقدموا رمضان ...) .

وقوله ﷺ (إذا جاء رمضان ..) .

وقوله ﷺ (شهرا عيد لا ينقصان : رمضان وذو الحجة ..) .

(٧) عن عَبْدَ اللَّهِ بْن عَبَّاسٍ (أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ أَخْبَرَهُ أَنَّ هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ – وَكَانُوا تُجَّاراً بِالشَّأْمِ – فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ ، فَأَتَوْهُ وَهُمْ بِإِيلِيَاءَ فَدَعَاهُمْ فِي مَجْلِسِهِ ، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ ثُمَّ دَعَاهُمْ وَدَعَا بِتَرْجُمَانِهِ فَقَالَ أَيُّكُمْ أَقْرَبُ نَسَباً بِهَذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَباً . فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي ، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ . ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ قُلْ لَهُمْ إِنِّي سَائِلٌ هَذَا عَنْ هَذَا الرَّجُلِ ، فَإِنْ كَذَبَنِي فَكَذِّبُوهُ . فَوَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عَنْهُ ، ثُمَّ كَانَ أَوَّلَ مَا سَأَلَنِي عَنْهُ أَنْ قَالَ كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ قُلْتُ هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ . قَالَ فَهَلْ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ مِنْكُمْ أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَهُ قُلْتُ لاَ . قَالَ فَهَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ لاَ . قَالَ فَأَشْرَافُ النَّاسِ يَتَّبِعُونَهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَقُلْتُ بَلْ ضُعَفَاؤُهُمْ . قَالَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ قُلْتُ بَلْ يَزِيدُونَ . قَالَ فَهَلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ مِنْهُمْ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ قُلْتُ لاَ . قَالَ فَهَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ قُلْتُ لاَ . قَالَ فَهَلْ يَغْدِرُ قُلْتُ لاَ ، وَنَحْنُ مِنْهُ فِي مُدَّةٍ لاَ نَدْرِي مَا هُوَ فَاعِلٌ فِيهَا . قَالَ وَلَمْ تُمْكِنِّي كَلِمَةٌ أُدْخِلُ فِيهَا شَيْئاً غَيْرُ هَذِهِ الْكَلِمَةِ . قَالَ فَهَلْ قَاتَلْتُمُوهُ قُلْتُ نَعَمْ . قَالَ فَكَيْفَ كَانَ قِتَالُكُمْ إِيَّاهُ قُلْتُ الْحَرْبُ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُ سِجَالٌ ، يَنَالُ مِنَّا وَنَنَالُ مِنْهُ . قَالَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ قُلْتُ يَقُولُ اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَاتْرُكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ وَالصِّلَةِ . فَقَالَ لِلتَّرْجُمَانِ قُلْ لَهُ سَأَلْتُكَ عَنْ نَسَبِهِ ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ فِيكُمْ ذُو نَسَبٍ ، فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ قَالَ أَحَدٌ مِنْكُمْ هَذَا الْقَوْلَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ، فَقُلْتُ لَوْ كَانَ أَحَدٌ قَالَ هَذَا الْقَوْلَ قَبْلَهُ لَقُلْتُ رَجُلٌ يَأْتَسِي بِقَوْلٍ قِيلَ قَبْلَهُ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، قُلْتُ فَلَوْ كَانَ مِنْ آبَائِهِ مِنْ مَلِكٍ قُلْتُ رَجُلٌ يَطْلُبُ مُلْكَ أَبِيهِ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ كُنْتُمْ تَتَّهِمُونَهُ بِالْكَذِبِ قَبْلَ أَنْ يَقُولَ مَا قَالَ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، فَقَدْ أَعْرِفُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لِيَذَرَ الْكَذِبَ عَلَى النَّاسِ وَيَكْذِبَ عَلَى اللَّهِ ، وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ ، وَسَأَلْتُكَ أَيَزِيدُونَ أَمْ يَنْقُصُونَ فَذَكَرْتَ أَنَّهُمْ يَزِيدُونَ ، وَكَذَلِكَ أَمْرُ الإِيمَانِ حَتَّى يَتِمَّ، وَسَأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أَحَدٌ سَخْطَةً لِدِينِهِ بَعْدَ أَنْ يَدْخُلَ فِيهِ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الإِيمَانُ حِينَ تُخَالِطُ بَشَاشَتُهُ الْقُلُوبَ ، وَسَأَلْتُكَ هَلْ يَغْدِرُ فَذَكَرْتَ أَنْ لاَ ، وَكَذَلِكَ الرُّسُلُ لاَ تَغْدِرُ ، وَسَأَلْتُكَ بِمَا يَأْمُرُكُمْ ، فَذَكَرْتَ أَنَّهُ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَعْبُدُوا اللَّهَ ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وَيَنْهَاكُمْ عَنْ عِبَادَةِ الأَوْثَانِ ، وَيَأْمُرُكُمْ بِالصَّلاَةِ وَالصِّدْقِ وَالْعَفَافِ . فَإِنْ كَانَ مَا تَقُولُ حَقًّا فَسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هَاتَيْنِ ، وَقَدْ كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّهُ خَارِجٌ ، لَمْ أَكُنْ أَظُنُّ أَنَّهُ مِنْكُمْ ، فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ ، وَلَوْ كُنْتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عَنْ قَدَمِهِ . ثُمَّ دَعَا بِكِتَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِي بَعَثَ بِهِ دِحْيَةُ إِلَى عَظِيمِ بُصْرَى ، فَدَفَعَهُ إِلَى هِرَقْلَ فَقَرَأَهُ فَإِذَا فِيهِ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . مِنْ مُحَمَّدٍ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ . سَلاَمٌ عَلَى مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَى ، أَمَّا بَعْدُ فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ ، يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ ، فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ وَ (يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَنْ لاَ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ) قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ ،

وَارْتَفَعَتِ الأَصْوَاتُ وَأُخْرِجْنَا ، فَقُلْتُ لأَصْحَابِي حِينَ أُخْرِجْنَا لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ . فَمَا زِلْتُ مُوقِناً أَنَّهُ سَيَظْهَرُ حَتَّى أَدْخَلَ اللَّهُ عَلَيَّ الإِسْلاَمَ . وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ وَهِرَقْلَ سُقُفًّا عَلَى نَصَارَى الشَّأْمِ ، يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْماً خَبِيثَ النَّفْسِ ، فَقَالَ بَعْضُ بَطَارِقَتِهِ قَدِ اسْتَنْكَرْنَا هَيْئَتَكَ . قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ ، فَقَالَ لَهُمْ حِينَ سَأَلُوهُ إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ ، فَمَنْ يَخْتَتِنُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ قَالُوا لَيْسَ يَخْتَتِنُ إِلاَّ الْيَهُودُ فَلاَ يُهِمَّنَّكَ شَأْنُهُمْ وَاكْتُبْ إِلَى مَدَايِنِ مُلْكِكَ ، فَيَقْتُلُوا مَنْ فِيهِمْ مِنَ الْيَهُودِ . فَبَيْنَمَا هُمْ عَلَى أَمْرِهِمْ أُتِيَ هِرَقْلُ بِرَجُلٍ أَرْسَلَ بِهِ مَلِكُ غَسَّانَ ، يُخْبِرُ عَنْ خَبَرِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَلَمَّا اسْتَخْبَرَهُ هِرَقْلُ قَالَ اذْهَبُوا فَانْظُرُوا أَمُخْتَتِنٌ هُوَ أَمْ لاَ . فَنَظَرُوا إِلَيْهِ ، فَحَدَّثُوهُ أَنَّهُ مُخْتَتِنٌ ، وَسَأَلَهُ عَنِ الْعَرَبِ فَقَالَ هُمْ يَخْتَتِنُونَ . فَقَالَ هِرَقْلُ هَذَا مَلِكُ هَذِهِ الأُمَّةِ قَدْ ظَهَرَ . ثُمَّ كَتَبَ هِرَقْلُ إِلَى صَاحِبٍ لَهُ بِرُومِيَةَ ، وَكَانَ نَظِيرَهُ فِي الْعِلْمِ ، وَسَارَ هِرَقْلُ إِلَى حِمْصَ ، فَلَمْ يَرِمْ حِمْصَ حَتَّى أَتَاهُ كِتَابٌ مِنْ صَاحِبِهِ يُوَافِقُ رَأْىَ هِرَقْلَ عَلَى خُرُوجِ النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَّهُ نَبِيٌّ، فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ ثُمَّ أَمَرَ بِأَبْوَابِهَا فَغُلِّقَتْ، ثُمَّ اطَّلَعَ فَقَالَ يَا مَعْشَرَ الرُّومِ ، هَلْ لَكُمْ فِي الْفَلاَحِ وَالرُّشْدِ وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ فَتُبَايِعُوا هَذَا النَّبِيَّ ، فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ ، فَوَجَدُوهَا قَدْ غُلِّقَتْ ، فَلَمَّا رَأَى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ ، وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَّ . وَقَالَ إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ ، فَقَدْ رَأَيْتُ . فَسَجَدُوا لَهُ وَرَضُوا عَنْهُ ، فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شَأْنِ هِرَقْلَ)

[م / ١٧٧٣] .

==========

(**أَنَّ أَبَا سُفْيَانَ بْنَ حَرْبٍ**) هو صخر بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف .

(**أَنَّ هِرَقْلَ**) هو ملك الروم ، وهرقل : اسمه ، ولقبه قصير ، كما يلقب ملك الفرس : كسرى .

(**فِي رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ**) أي : أرسل إلى أبي سفيان في حال كونه في جملة الركب ، وذاك لأنه كان كبيرهم فلهذا خصه ، وكان عدد الركب ثلاثين رجلاً ، رواه الحاكم في الإكليل .

(**فِي الْمُدَّةِ الَّتِي كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَادَّ فِيهَا أَبَا سُفْيَانَ وَكُفَّارَ قُرَيْشٍ**) يعني مدة صلح الحديبية ، وكانت في سنة ست ، وكان مدتها عشر سنين ، لكنهم نقضوا ، فغزاهم سنة ثمان وفتح مكة .

(**ثُمَّ قَالَ لِتَرْجُمَانِهِ**) الترجمان : المعبر عن لغة بلغة .

(**فَقَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَقُلْتُ أَنَا أَقْرَبُهُمْ نَسَباً**) وإنما كان أبو سفيان أقرب لأنه من بني عبد مناف ، وقد أوضح ذلك المصنف في الجهاد بقوله : قال : ما قرابتك منه ؟ قلت : هو ابن عمي ، قال أبو سفيان : ولم يكن في الركب من بني عبد مناف غيري ، وعبد مناف الأب الرابع للنبي ﷺ وكذا لأبي سفيان .

وإنما خص هرقل الأقرب لأنه أحرى بالاطلاع على أموره ظاهراً وباطناً أكثر من غيره ، ولأن الأبعد لا يؤمن أن يقدح في نسبه بخلاف الأقرب .

(**فَقَالَ أَدْنُوهُ مِنِّي ، وَقَرِّبُوا أَصْحَابَهُ ، فَاجْعَلُوهُمْ عِنْدَ ظَهْرِهِ**) أي : لئلا يستحيوا أن يواجهوه بالتكذيب إن كذب .

(**فَوَاللَّهِ لَوْلاَ الْحَيَاءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عَنْهُ**) أي : ينقلوا علي الكذب لكذبت عليه .

(**فَلَوْ أَنِّي أَعْلَمُ أَنِّي أَخْلُصُ إِلَيْهِ**) بضم اللام ، أي : أصل .

(**لَتَجَشَّمْتُ لِقَاءَهُ**) أي : تكلفت الوصول إليه .

(**دِحْيَةُ**) بكسر الدال ، ابن خليفة الكلبي ، صحابي جليل ، كان أحسن الناس وجهاً ، وأسلم قديماً ، وبعثه النبي ﷺ في آخر سنة ست بعد أن رجع من الحديبية بكتابه إلى هرقل ، ومات في خلافة معاوية .

(**بُصْرَى**) بضم الباء مدينة بين دمشق والمدينة .

(**فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلاَمِ**) ولمسلم (بداعية الإسلام) أي : بالكلمة الداعية إلى الإسلام ، وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

(**أَسْلِمْ تَسْلَمْ**) غاية في البلاغ ، تسلم في الدنيا بالنجاة من الحرب والجزية ، وفي الآخرة بالنجاة من النار .

(**يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ**) لكون مؤمن بنبيه ، ولإيمانه بالنبي ﷺ ، فإن الكتابي إذا آمن بنبيه ثم آمن بمحمد فإنه الأجر مرتين .

(**فَإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإِنَّ عَلَيْكَ إِثْمَ الأَرِيسِيِّينَ**) أي : عليك إثم أتباعك من الضعفاء والأتباع ، لأنهم لم يسلموا تقليداً له ، والمعنى : فإن عليك مع إثمك إثم الأريسيين .

(**قَالَ أَبُو سُفْيَانَ فَلَمَّا قَالَ مَا قَالَ ، وَفَرَغَ مِنْ قِرَاءَةِ الْكِتَابِ كَثُرَ عِنْدَهُ الصَّخَبُ**) الصخب اللغط والخصام .

(**فَقُلْتُ لأَصْحَابِي**) وفي الجهاد (حين خلوت بهم) .

(**لَقَدْ أَمِرَ أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ**) لَقَدْ أَمِرَ [عَظُمَ] أَمْرُ ابْنِ أَبِي كَبْشَةَ ، وأبو كبشة أبوه من الرضاعة ، وعادة العرب إذا انتقصت نَسبت إلى جد غامض .

(**إِنَّهُ يَخَافُهُ مَلِكُ بَنِي الأَصْفَرِ**) أي : وصل أمره وارتفع حتى إنه يخافه ملك الروم .

(**وَكَانَ ابْنُ النَّاظُورِ صَاحِبُ إِيلِيَاءَ**) ابن الناطور هو أمير بيت المقدس وصديق هرقل .

(**يُحَدِّثُ أَنَّ هِرَقْلَ حِينَ قَدِمَ إِيلِيَاءَ أَصْبَحَ يَوْماً خَبِيثَ النَّفْسِ**) أي : رديء النفس غير طيبها ، أي : مهموماً .

(**قَالَ ابْنُ النَّاظُورِ وَكَانَ هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ فِي النُّجُومِ**) حزاء أي :كاهناً .

(**إِنِّي رَأَيْتُ اللَّيْلَةَ حِينَ نَظَرْتُ فِي النُّجُومِ مَلِكَ الْخِتَانِ قَدْ ظَهَرَ**) أي : عرفت من النجوم أن ملِك الأمّة التي تختتن قد ظهر .

(**فَأَذِنَ هِرَقْلُ لِعُظَمَاءِ الرُّومِ فِي دَسْكَرَةٍ لَهُ بِحِمْصَ**) أي : فأعلن هرقل لعظماء دولته عن عقد اجتماع في قصر عظيم بحمص ، لكي يلقي فيهم خطاباً هاماً ، و (الدسكرة) القصر الذي حوله بيوت .

(**وَأَنْ يَثْبُتَ مُلْكُكُمْ**) لأنهم إن تمادوا على الكفر كان سبباً لذهاب ملكهم ، كما هو عرف ذلك من الأخبار السابقة .

(**فَحَاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إِلَى الأَبْوَابِ**) حاصوا : أي نفروا ، وشبههم بالوحوش لأن نفرتها أشد من نفرة البهائم الإنسية ، وشبههم بالحمر دون غيرها من الوحوش لمناسبة الجهل وعدم الفطنة بل هم أضل

(**وَأَيِسَ مِنَ الإِيمَانِ**) أي : قنط .

(**قَالَ رُدُّوهُمْ عَلَيَّ . وَقَالَ إِنِّي قُلْتُ مَقَالَتِي آنِفاً**) قريباً .

(**أَخْتَبِرُ بِهَا شِدَّتَكُمْ عَلَى دِينِكُمْ**) أي : لأختبر صلابتكم في دينكم ، وشدة تمسككم به .

(**فَقَدْ رَأَيْتُ**) وفي التفسير (فقد رأيت منكم الذي أحببت) .

(**فَكَانَ ذَلِكَ آخِرَ شأن هرقل**) أي : نهاية قصته ، وموقفه من كتاب رسول الله ﷺ .

١- الحديث دليل على أنه يجب دعوة جميع العالم إلى الإسلام .

٢- الحديث دليل على أن الكذب كان عيباً كبيراً في الجاهلية ، قال النووي : وفي هذا بيان أن الكذب قبيح في الجاهلية كما هو قبيح في الإسلام .

٣- الحديث دليل على أن المؤمن لا يرتد عن دينه سخطة منه ، لكن ربما لأسباب أخرى .

٤- الحديث دليل على أن الغنى والجهل سببان في الصد عن سبيل الله ، ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه) يعني: المال والجاه يفسدان دين الإنسان أكثر من إفساد الذئب الجائع للغنم؛ وهذه مسألة مهمة .

وقد قال تعالى (أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى) .

٥- الحديث دليل على أن أغلب أتباع الأنبياء هم الفقراء ، كما قال تعالى عن قوم نوح (فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) .

وقد أشار تعالى إلى أن من حكمة ذلك فتنة بعض الناس ببعض فإن أهل المكانة والشرف والجاه يقولون : لو كان في هذا الدين خير لما سبقنا إليه هؤلاء لأنا أحق منهم بكل خير كما قال (وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا) إنكار منهم أن يمن الله على هؤلاء الضعفاء دونهم زعما منهم أنهم أحق بالخير منهم ، وقد رد الله قولهم هنا بقوله (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ) وقد أوضح هذا المعنى في آيات أخر كقوله تعالى (وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْراً مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ).

وقوله (وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَاماً وَأَحْسَنُ نَدِيّاً) .

والمعنى : أنهم لما رأوا أنفسهم أحسن منازل ومتاعا من ضعفاء المسلمين اعتقدوا أنهم أولى منهم بكل خير وأن أتباع الرسول ﷺ لو كان خيرا ما سبقوهم إليه ، ورد الله افتراءهم هذا بقوله (وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثاً وَرِئْياً) .

قال النووي : ولأن الأشراف يأنفون من تقدم مثلهم عليهم ، والضعفاء لا يأنفون فيسرعون إلى الانقياد واتباع الحق .

٦- الحديث دليل على أن الإيمان إذا وقر في القلب فإن صاحبه لا يرتد .

٧- الحديث دليل على أن الخوف على النفس يمنع من اتباع الحق .

٨- الحديث دليل أن الرسل تبعث في أفضل أنساب قومها ، قال النووي : قيل الحكمة في ذلك أنه أبعد من انتحاله الباطل وأقرب إلى انقياد الناس له .

٩- الحديث دليل على أن سنة الله في أنبيائه وأتباعه هي الابتلاء .

١٠- الحديث دليل على أن الله ميز الأنبياء بالأخلاق كالصدق والعفاف والوفاء والصلاة وأداء الأمانة .

فهم من أجود الناس خلقاً ، بل ما اختارهم المولى جل في علاه لحمل رسالته ، إلا لما علم من علمه الأزلي بحسن خلقهم فقد قال ابن مسعود رضي الله عنه : إن الله نظر في قلوب العباد . فوجد قلب محمد صلى الله عليه وسلم خير قلوب العباد فاصطفاه لنفسه فابتعثه برسالته ، بل الصديقة عائشة بنت الصديق عندما أرادت أن تصف خلق القرآن بحثت فلم تجد أفضل من قول : كان خلقه القرآن .

١١- الحديث دليل على أن دعوة الرسل هي الدعوة إلى مكارم الأخلاق ، وتتجلى وتتضح في قول النبي ﷺ (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) رواه أحمد .

١٢- الحديث دليل على فضل الصدق .

١٣- الحديث دليل على أن دعوة الرسل جميعاً هي عبادة الله وترك ما سواه ، كما قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) .

وقال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ) .

وقال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

وكان كل نبي يقول لقومه (اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلا تَتَّقُونَ) .

١٤- الحديث دليل على عظم منزلة ومكانة الصلاة ، حيث فرضت بمكة قبل الهجرة ، قيل قبلها بثلاث سنين وهو قول الجمهور .

١٥- الحديث دليل على مشروعية قول : أما بعد ، في الخطب والكتب ، ويؤتى بها عند الدخول في الموضوع ، وأما قول من قال : يؤتى بها للانتقال من موضوع إلى موضوع آخر فقول ضعيف .

١٦- الحديث دليل على استحباب البلاغة والإيجاز وتحري الألفاظ الجزلة في المكاتبة، فإن قوله ﷺ : أسلم تسلم، في نهاية الاختصار وغاية من الإيجاز والبلاغة وجمع المعاني .

١٧- قال النووي : قال العلماء : هذا الذي قاله هرقل أخذه من الكتب القديمة ففي التوراة هذا أو نحوه من علامات رسول الله ﷺ فعرفه بالعلامات . هكذا قال المازري .

١٨- إن قيل : كيف سوغ البخاري إيراد هذا الخبر المشعر بتقوية خبر المنجم ، والاعتماد على ما يدل عليه أحكامهم ؟ وأجيب : بأنه لم يقصد ذلك ، بل قصد أن يبين أن البشارات بالنبي ﷺ جاءت من كل طريق، وعلى لسان كل فريق من كاهن أو منجم محق أو مبطل ، إنسي أو جني . [العيني] .

١٩- الحديث دليل على أن صدق الرسول ﷺ وعلاماته كان معلوماً لأهل الكتاب علماً قطعياً ، وإنما ترك الإيمان من تركه منهم عناداً وحسداً أو خوفاً على فوات مناصبهم في الدنيا .

٢٠- في سؤال هرقل عن الغدر ، لأن من طلب الرئاسة والدنيا خاصة لم يسأل عن أي طريق وصل إليها ، ومن طلب شرف الآخرة والدنيا لم يدخل فيما يعاب عليه ولا فيما يأثم فيه .

٢١- أن الرسل تبتلى ليعظم لها الأجر ولمن اتبعها .

٢٢- قوله (وَسَأَلْتُكَ أَشْرَافُ النَّاسِ اتَّبَعُوهُ أَمْ ضُعَفَاؤُهُمْ فَذَكَرْتَ أَنَّ ضُعَفَاءَهُمُ اتَّبَعُوهُ ، وَهُمْ أَتْبَاعُ الرُّسُلِ) فيه أن أتباع الرسل هم الضعفاء كما تقدم .

وقد جمع بعض طلاب العلم أوجه الاتفاق بين رسل الله عليهم الصلاة والسلام في القرآن الكريم ، وسوف أذكر بعض هذه الأوجه :

- **الدعوة إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له .**

قال تعالى (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) .

- **اتفقوا على بقية أركان الإسلام .**

قال تعالى (وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاء الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ) .

وقال تعالى عن إسماعيل (وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُ بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِ مَرْضِيّاً) .

وقال تعالى عن إبراهيم (رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلاَةِ) .

وقال تعالى عن موسى وهارون (وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى وَأَخِيهِ أَن تَبَوَّءَا لِقَوْمِكُمَا بِمِصْرَ بُيُوتاً وَاجْعَلُواْ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ) .

وقال تعالى (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُون) .

وقال تعالى عن إبراهيم (وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ) .

- **خوفهم من الذنوب وشدة تعظيمهم لأمير ربهم :**

قال تعالى عن أبينا آدم وزوجه (قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ) .

وقال تعالى عن موسى (قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيم) .

وقال تعالى عن يونس (وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِباً فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ) .

- **مع عظيم ثقتهم بالله بوعد الله ونصره إلا أنهم بشر من البشر تمر عليهم حالات قد يستبطئون النصر .**

قال تعالى (حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) .

وقال تعالى (أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ) .

- **اتفاقهم على سنة الزواج وطلب الذرية .**

قال تعالى (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجاً وَذُرِّيَّةً) .

- **عدم الخوض في الذي لا علم لهم به .**

قال تعالى (يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَا أُجِبْتُمْ قَالُواْ لاَ عِلْمَ لَنَا إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ) .

وقال تعالى عن نوح (قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَإِلاَّ تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُن مِّنَ الْخَاسِرِينَ) .

وقال تعالى عن عيسى (قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ) .

- **إنهم لا يأخذون أجرا على تبليغ الرسالة .**

قال تعالى عن نوح أنه قال لقومه (وَيَا قَوْمِ لا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مَالاً إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ) .

وقال تعالى عن نبينا (قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَاء أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً) .

وفي سورة الشعراء كل نبي يقول لقومه (وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

- **حزنهم وكمال شفقتهم على أممهم وحزنهم بسبب تكذيبهم لهم .**

قال تعالى عن موسى (وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً) .

وقال تعالى لنبيه محمد ﷺ (فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفاً) .

وقال تعالى (قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لاَ يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللهِ يَجْحَدُونَ) .

- **اشتراكهم في حصول الأذى من أقوامهم .**

قال تعالى (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا) .

وقال تعالى (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُواْ مِنْهُم مَّا كَانُواْ بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ) .

- **لا يبعث نبي إلا ومعه آية تدل على صدقه .**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ (مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْياً أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ) متفق عله .

- **وجود أعداء لدعوتهم .**

قال تعالى (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً) .

- **تأييد الله لهم .**

قال تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّبِيٍّ إِلاَّ أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ) .

وقال تعالى (ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُواْ كَذَلِكَ حَقّاً عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

- **أشرف ما يوصف به أنبياء الله هو كونهم عبيد لله .**

قال تعالى عن نوح (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

وقال تعالى (وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ) .

وقال تعالى عن عيسى (إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلاً لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ) .

ووصف الله نبينا محمد بالعبودية في مواضع :

في مقام الإسراء قال تعالى (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ) .

وفي مقام التحدي (وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ) .

وفي مقام الدعوة (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَداً) .

- **أن الله وصفهم بعبادة الشكر .**

قال تعالى عن نوح (ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْداً شَكُوراً) .

وقال تعالى عن إبراهيم (شَاكِراً لِّأَنْعُمِهِ) .

وقال تعالى (قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ) .

وقال تعالى لنبيه ﷺ (بَلِ اللّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنْ الشَّاكِرِينَ) .

- **عامة أتباعهم من الضعفاء .**

كما في حديث ابن عباس (أن هرقل سأل أبو سفيان : فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم ؟ فقلت : بل ضعفاؤهم ، قال : هم أتباع الرسل) .

وقال تعالى عن قوم نوح أنهم قالوا له (وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ) .

وقال تعالى (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُواْ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا) .

وقال تعالى عن قوم صالح أنهم قالوا له (قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ قَالُواْ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُون) .

- **اتفاقهم على الوصية على الإسلام حياة ومماتا والدعاء به .**

قال تعالى عن إبراهيم وإسماعيل (رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ) .

وقال تعالى (وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلاَ تَمُوتُنَّ إَلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ) .

وقال تعالى عن يوسف (تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ) .

(هذه الفائدة تم نقلها من ملتقى أهل التفسير) وفقهم الله تعالى لكل خير .

وبهذا تم شرح كتاب بدء الوحي من صحيح البخاري

ولله الحمد

أخوكم / سليمان بن محمد اللهيميد

السعودية رفحاء

الموقع على النت مجلة رياض المتقين

www.almotaqeen.net